التعليم التقليدي في الزوايا، أصالة علمية وبعد اجتماعي.

Traditional education in scientific Zawiyas. authenticity and social dimension

شطة عطية

المركز الجامعي نور البشير ، البيض ، الجزائر attiachatta@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/11/15 تاريخ القبول: 2022/02/24 تاريخ النشر: 2022/06/01

الملخص :

تعتبر مؤسسة الزاوية نتاجا مشرفا للحضارة الاسلامية بالنظر لوظائفها المتعددة والتي من بينها وظيفة التعليم ، حيث نهدف من خلال هذا المقال إلى تبيين مدى نجاح الزوايا في نشر العلم بين مرتاديها و تنوير محيطها ، وهل كان لذلك أثر على الواقع الإجتماعي ، وما مدى التزام منتسبيها بنوعية التعليم ذي الصبغة الصوفية .

وحيث تعتبر مؤسسة الزاوية مجالا مفتوحا لكافة أفراد المجتمع المسلم لتلقي جملة العلوم خاصة الشرعية منها وعلى رأسها القرآن الكريم، فإن أثر ذلك كان جليا في أصعب الفترات لاسيما في فترات الإستعمار وغياب الدولة الرسمية وانعدام منظومة تعليمية تأخذ بيد أبناء المجتمع إلى مصاف الشعوب المتعلمة و تلحقه بالركب الحضاري، وها قد استشعرت الزاوية هذه المهمة النبيلة فخصصت جهودها لتعليم أبناء الشعب دينهم و باقي العلوم الحيوية وكانت فعلا عضدا للتنمية الشاملة، فهل وعى القائمون عليها هذا الحمل وكيفوه مع المتغير الإجتماعي ضمانا لبقاء مؤسسة الزاوية وتحقيقا للغاية من وجودها المتعددة الأهداف كالتربية وإصلاح ذات البين ومحاربة الآفات الاجتماعية .

الكلمات المفتاحية: الزاوية ، التعليم ، التصوف ، المجتمع، الشيخ

Abstract

The establishment of Zawia is considered as an honorable product of the Islamic civilization in view of its multiple functions, among which is the function of education, as we aim through this article to demonstrate the extent of the success of the zawiyas in spreading knowledge among its users and enlightening its surroundings, and whether this had an impact on the social reality, and what is the extent of its members 'commitment to the quality of their education.

Whereas, the Zawiya is an open field for all members of the Muslim community to receive a set of sciences, especially Shariaa, on top of which is the Noble Qur'an. The effect of this was evident in the most difficult periods, especially in colonial periods, the absence of

the official state, and the absence of an educational system that takes the hands of the community's children to the ranks of the educated peoples and joins them.

Zawiya sensed this noble mission, so it devoted its efforts to educating the people of their religion and the rest of the vital sciences, and it was really a support for comprehensive development, so did those in charge of it be aware of this pregnancy and adapted it with the social variable to ensure the survival of the Zawiya institution and to achieve the goal of its multi-purpose existence, such as education, reform of self and fighting social ills .

Keyword: azzawia ,education, Sufism, society, Sheikh/spirituel leader.

*المؤلف المرسل

مقدمـة:

لا شك أن التاريخ الاسلامي حافل بالإنجازات التي كانت دليلا على أفضال الامة الاسلامية على غيرها من الأمم استحضارا لرسالتها بأن تكون شاهدة عليها لتحقيق سعادة الدارين بصلاح الحال وحسن المآل، ومن هذا الموروث و أهمه على الإطلاق رسالة التعليم، باعتبار الفكرة المحورية لكل مسلم هي عبادة الله تعالى على أحسن حال والتمكين لدينه، ولن يتأتى ذلك إلا بالعلم الموصل إلى معرفة الله تعالى والالتزام بتعاليم دينه .

هذا، ونهدف من خلال مقالنا إلى إبراز دور الزوايا كمؤسسات في إثبات دورها التعليمي الذي كاد يكون السبب في نشأتها مع غيره من المقاصد الجليلة والأهداف النبيلة كالتربية الروحية والدور الاجتماعي والجهادي في كثير من الأحيان ...وغيرها التي سنقتصر منها على الدور التعليمي.

فهل كانت الوظيفة التعليمية للزوايا السبب المباشر في بقائها والتي لم تقتصر على تدريس القرآن الكريم وعلومه والشريعة الإسلامية كالفقه بل تجاوزتها إلى القراءات واللغة والفلك والحساب لحاجة الفقه إليها كالمواريث والمواقيت؟ وهل لازمتها طيلة فترة وجودها كرسالة حضارية حتى في غياب الدولة الرسمية جعلت القائمين على الزوايا يستحضرون مسؤوليتهم الدينية والتاريخية والاجتماعية في تنوير منتسبي زواياهم ومريديهم؟

وتبعا للتغيرات الحاصلة في المجتمعات لاسيما الإسلامية فإن الزوايا العاملة مطالبة بضرورة التكيف لضمان بقائها سواء في برامجها أو طريقة معاملة مرتاديها، وهو ما سنحاول الوقوف عليه من خلال هذا المقال اعتمادا على واقع الزوايا العاملة بالعالم الإسلامي والجزائر خصوصا .

التنشئة السلوكية أساس الحركة التعليمية في الزوايا :

يعتبر السادة الصوفية أول المؤلفين وبهم تم حفظ تراث المسلمين و لغتهم في أكثر من بقعة لاسيما في بلاد العجم وإفريقيا الغربية تبعا لانتشار الطرق الصوفية وزواياها العاملة.

ذلك أنه من عوامل نجاح هذه الطرق الصوفية زيادة على الانشغال بالجانب الروحي في جلب العلماء الأجلاء لمحاربة التبشير في فترة الاستعمار تمحور أنشطتها واهتمامها على اختلاف مشاربها بالتعليم بالمحاضر و الكتاتيب و العمل على نشرها في أوسع نطاق.

إلا أن عدم مسايرتها للتطورات الحاصلة في مجال التعليم الحديث أدى إلى عزوف الناس على الانتساب إليها مما أدى إلى نشوب خلاف وتنافس مقيت بينها، وظهور طوائف مناوئة لها كالسلفية و الإخوان إضافة إلى عدم كفاءة شيوخ بعض زوايا الطرق الصوفية واعتمادهم على الموروث وقلة الإقناع رغم حجية الدليل الشرعي للفكرة .

ومع هذا، فإن أدعياء التصوف يتيهون عن غيرهم بكونهم أخذوا علمهم ميتا عن ميت و هم أخذوا علمهم بالمشافهة شيخا عن شيخ عن الحي الذي لا يموت.

في إشارة إلى التلقين الإلهي بالمشاهدة، مصداقا لقوله تعالى:

﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ سورة النساء ، آية 113

وفيهم يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه "المنقذ من الضلال" متحدثا عن سلوكهم وطريقتهم الحقة الموصلة إلى الله تعالى:

و من المعلوم يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السيرة وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق...ثم يقول ردا على من أنكر على الصوفية وتهجم عليهم: وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها- وهي أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله. (المسافر، 2007)

ما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية عن المتصوفة إنهم سقوا الأمة البدع في آنية الأنبياء، ذلك أنهم استباحوا ما استؤمنوا عليه من سر مما أدى باستهجان العامة لهم حتى العلماء، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما يرويه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين، أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطِعَ هذا الحلقوم (أحمد المسند،563/16).

وعليه، يمكن التمييز بين أصناف ثلاثة من سير رجال الدين في الجزائر خاصة وببلاد الإسلام على وجه العموم، فهناك المتصوفة العلماء العاملون المستقلون الذين لا صلة لهم بالتصوف لا معاداة ولكن عدم انصرافا عنه، وهناك من العلماء الذين طبعهم التصوف ولم يميلوا إليه ولم يتقربوا من السلطة إلا لماما وفي أشد الأحوال .

وهناك وللأسف من انتسب للتصوف وما هو بذلك، فقد ادعوا العلم و الزهد والولاية لكنهم للسياسة أميل ولمصالحهم أقرب، كما أن التصوف لحقه من النقد لانحراف منتسبيه عن الجادة التي نشأ من اجلها وجاء بها الشيخ المؤسس عبر التاريخ الاسلامي عموما وفي تاريخ الجزائر الحافل بالعلم والعلماء إذ نجد من لم يوافق هذا التوجه الصوفي البحت لا سيما بعدما انتقل من كونه سلوكا الى أدلجته .

ونجد من بين هؤلاء العلامة عبد الكريم الفكون الذي ينتمي الى عائلة جزائرية قدمت الكثير للعلم والتصوف فقد انتقد ما أنتجه المتصوفة من أفكار ودعا في ذات الإطار إلى ما يسمى بالتصوف السلفي وقد سانده في ذلك العلامة الشهير الأخضري، حيث اعتبر

هؤلاء العلماء أن الدين الاسلامي في الجزائر سيشكل المرجعية الأساسية لمناهضة كافة أشكل الاستعمار بكل صوره . (رمعون، 1998)

هذا، ولا ينكر أبسط الباحثين والمشتغلين على حقل الفكر الاسلامي أن من بين من دعا لتصحيح مسار التصوف و الطرقية عموما من العلماء المتأخرين العلامة ابن باديس رحمه الله الذي لم يكن يوما منكرا لهذا التوجه كما قد يتوهم الكثير للأسف بل له رسائل بينه وبين شيوخ الزوايا لا سيما الرحمانية منها، كما له تقاريض على تآليف عديدة لبعض شيوخها ، وقد طبع على نفقة جمعية العلماء المنظومة الرحمانية للشيخ باش تارزي، و فيها من آداب المريد المتعلم مع شيخه ما يمكن أن يكون منهاجا للسالكين والمتعلمين من الناشئة، مصطفى باشتارزي، (باشتارزي، 2016)

وهذه المنظومة مع أنها كتبت بالعامية المهذبة، فإنها اشتملت على أصول الخلوتية، وآدابها الصوفية، الشرعية، وأهم ما ورد في الخاتمة التي كتبها الشيخ عبد الحميد، هو هذه النصيحة بالأدب العلمي والعملي، وأن ترقية النفس لا تكون بمجرد الانتساب للطريقة اسميا، ودعوته للتعلم واكتساب العلم، والأمر الذي لا سعادة ولا تقدم إلا بها، ولا فقه للشرع إلا بهذا العلم، وقد وقفت على بعض هذه الرسائل في المكتبة الخاصة بزاوية سيدي علي بنعمر بطولقة .

حتى تنجح العملية التعليمية بالزوايا فقد كان لزاما على الشاب المسلم أن يميز بين هذه الأصناف في حقل المتصوفة وأن يتحرى ذلك بحزم وموضوعية ، ذلك أن معرفة الشيخ للكتاب والسنة أمر لا مناص منه فعليه أن يتحلى بأخلاق ويتصف بصفات على رأسها الزهد في ما لدى الخلائق والابتعاد عن كل ما يشغل عن وظيفته الأساسية التي لا تكاد تخرج عن دائرة التربية الروحية والاجتماعية الحقة، وأن ينأى بنفسه عن الخلافات الطائفية والتصلب لموقف والانتصار لطائفته والتميز عن غيره من طوائف الإسلام كما يفعل بعض الشباب اليوم .

كما على الشيخ اعتبار المريدين والمتعلمين خاصة سواسية لديه على اختلاف منطلقاتهم وتباين مشاربهم و هو ما أفلح فيه أغلب الشيوخ، لأنهم إذا ما مالوا لجهة معينة خسر من سواها ومن ثم خسر المصداقية التي هي ما يصبو إليه شيخ كل طريقة، لكي يتمكن من تربية مريديه تربية طرقية صحيحة ولأن فاقد الشيء لا يعطيه لكون العدل في التعليم رسالة مجردة من كل قصد إلا غاية استمرارية ميراث النبوة والتبليغ عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

ولقد أجمع الباحثون على أن التربية الصحيحة والتعليم السليم بالزوايا يمنع من يشرب من معينها ويستزيد من زلالها أن ينحرف عن الجادة المنشودة التي تقتضي من المسلم بالدرجة الأولى أن يستقر اجتماعيا وكل من يرد عليهم لا سيما إذا توسموا فيه الصلاح والخلق السوي ، وكل من خالط هاته الفئة يدرك أنه لا يوجد شاب صوفي تائه يعاني من مشكل اجتماعي أو نفسي لأنه شرب من معين التربية الروحية والمعدن التعليم الصافي الذي أساسه الزهد في ملذات الحياة حتى ما كان منها حلالا، ولا يزال أهل البادية والريف أدعى لاحتضان مبادىء التصوف، كما أن أهل البوادي والأرياف يكتفون بالضروري من متطلبات الحياة لكون بيئتهم أقرب إلى التربية الصوفية، وفي هذا قال ابن خلدون في أهل الأرياف أنهم يبحثون سكان الريف بدورهم عن متاع الدنيا، ولكنهم لا يطلبون سوى ما يحتاجونه أو الضروري منه فقط، كما أنهم لا يفكرون في الثراء الفاحش، ولا يبحثون عما يشبع شهواتهم ويزيد في رغباتهم. علاوة على ذلك، تتميز عاداتهم، التي تنظم حياتهم، بالسلاسة ويمكن أن نجد في ممارساتهم وطبيعتهم أشياء كثيرة لنتعلم منها، بالإضافة إلى أن عيوبهم لا تشكل خطرا كبيرا لو قارنها بعادات سكان المدن.

من جهة أخرى، يعد أهل الريف أقرب من أهل المدينة إلى طبيعة الإنسان البدائي، كما أن نفوسهم أقل حساسية من الانطباعات التي تخلفها العادات السيئة، لذلك إذا أردنا إصلاحهم أو توجيههم نحو الطريق الصحيح، فلن يشكل ذلك صعوبة

كبيرة، في حين يصعب ذلك مع أهل المدن. ويؤكد كل هذا أن أهل الأرياف أكثر ميولا إلى الفضيلة من سكان المدن، مستشهدا بآية من سورة التوبة، ﴿فإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾. (سورة التوبة، آ: 04 .)

و بقدر ما استعصى عليهم من المعاش في الخصب وكانت بداوتهم متوحشة بقدر ما نقص من شجاعتهم و صبرهم على مصاعب الحياة، وينسحب ذلك على كافة مناحي حياتهم لاقتصارهم حتى على ما خف من حمل وأدوات كالقلم من القصب والدواة من صمغ الشجر البطمة و صوف الأغنام واللوحة خشبية والصلصال للمحي من ضفاف الأودية ، كما يكتفون بقليل المتاع واللباس، أليست هذه هي الطائفة النجية في الدنيا قبل الآخرة.

فتراهم يجتهدون بحفظ كتاب الله تعالى والتقيد بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والزهد لاحقا في ما يزيد عن المسكن الفسيح والمركب المريح والزوجة الصالحة - كما جاء في الأثر – والابتعاد عن الدنيا وزخرفها وكافة مغريات السياسة وعدم التعاون مع الظلام و المتجبرين، و إن شواهد ذلك كثيرة ولقد عرف كل من خالط هذه الفئة ذلك عن قرب لكونهم شربوا من معين الزوايا و صقلوا بشخصية شيوخهم ومربيهم.

و بالنظر لما تكتسيه الزوايا باعتبارها قلاع علم من مكانة ومصداقية في قلوب الناس في أيامنا وعلى مر العصور، فإن خطر انحراف هذه المدارس والزوايا عن جادة السبيل الذي وجدت من أجله والغاية التي أسست لها لخطر جليل لن يمكن تدارك آثاره السلبية إلا بعد فوات الأوان، لذا وجب استغلالها أيما استغلال من قبل القائمين على التربية والثقافة على حد سواء في الاستزادة من تعليم الناشئة بما يصلح حالهم تحصيلا وسلوكا.

ومن ذلك الحفاظ على ما اتسمت به من موسوعية في المواد الملقنة واختلافها بين التربية السلوكية وبين تحفيظ المنظومات، فلا يقتصر طالب الزاوية على حفظ القرآن

الكريم أو متون الفقه بل يجب سلفا تربيته بسلوك القوم كما يعرف في أدبياتهم ، و من أقوال الشافعي في ضرورة الجمع بين الشريعة و الحقيقة أي التصوف :

فقيها وصوفيا كن لا واحدا ..... فإني وحق الله إياك أنصح

فذاك قاس لم يذق قلبه تقى ..... وهذا جهول كيف ذو الجهل يصلح

و لئن كانت الطرق الصوفية في مجملها مستوردة من جهة ما من العالم الإسلامي مشربا إما من المغرب – الدرقاوية و الطيبية و الزيانية - أو من المشرق – القادرية و الخلوتية- فإنها قد لعبت دورا بارزا في الحركة التعليمية في البلاد الاسلامية وكانت الزوايا العلمية واجهتها الأولى وترجمان أفكارها للمحيط الخارجي، ذلك أن الزوايا اعتبرت مصدر علم وإشعاع فكري على مر الزمان.

الدور الاجتماعي للزوايا العلمية و أثر استقامة طلبتها :

لا ننكر أنه كان لشيوخ التصوف دورا بارزا في التقليل من تكالب الناس على المادة والابتعاد عن زخرف الدنيا كما سبق، حيث ضبطوا نفوس طلبتهم على الاستقامة والزهد في الحلال من الملذات وقللوا من شهواتهم ومنعوهم من ارتكاب ما شاع اليوم من أزمات أخلاقية ظواهر اجتماعية وأن العطاء وهب من الله تعالى من غير سؤال وأن طلب العطاء سوء أدب بل السادة الصوفية يطلبون البركة في العطاء عبد الحق ميحي، (ميحي، 2009)

كما قد لعبت مؤسسة الزاوية دورا لا ينكره إلا جاحد في ملإ الفراغ الذي سببه تخلي الدولة عن مهامها الكلاسيكية المتمثلة في التعليم والتربية و بسط شيء من التكافل الاجتماعي و إيواء المعدمين ودعم المعسرين من أبناء الأمة المنقطعين إلى طلب العلم من مشاربه سواء كانت الدولة وطنية أو استعمارية ، فقد ظلت الزاوية بديلا للدولة الرسمية في ملإ هذا الفراغ بالسعي في نشر العلم والتربية الصحيحة التي لم تصب في النهاية سوى في وعاء الوطنية الخالصة وإعداد جيل كمادة خام لانطلاقة تنموية شاملة استحضارا لرسالة الأمة العلمية ومدها برجالات العلم والفتوة والفتوى بدون مقابل باعتبارها جامعة مفتوحة لكافة أبناء المجتمع المسلم.

هذا، وتبعا لدورها التعليمي ، فقد عملت مؤسسة الزاوية على بسط شيء من الاستقرار والسلام بين القبائل المحيطة بها لما تكتسيه من سلطان روحي لدى منتسبيها من الطلبة وأوليائهم، أليست هكذا مؤسسات حرية بالدعم و العناية .

دور الزوايا في الحفاظ على الهوية :

لقد لعبت العديد من زوايا القطر الجزائري والعالم الاسلامي دورا يستحق الإشادة، بالنسبة لتحفيظ القرآن الكريم نجد المئات ممن تخرج على شيوخها بكيفية نادرة وقوة حفظ قد يفتقر إليها غيرهم ممن يعتبرون نتاج المؤسسات النظامية والمعاهد الرسمية لكونهم يعتمدون على المنظومات وحفظ المتون وبالتالي سهولة استقاء الأدلة والنهل من معين العلم الأصيل بلا فوضى ولا جرأة على الفتوى وحسبها جناية وجرأة على الله تعالى وشرعه مما اتسم به غيرهم من طلبة العلم، لا سيما الفتاوى العابرة للقارات (التميمي، 2015، صفحة أولى) لكون أبناء الزوايا منقادين إلى شيخهم وملتزمين بفكرة السلسلة العلمية والمشيخة وهو ما يفتقر إليه غيرهم للأسف. (التميمي، 2015)

كما كان ولا يزال دور الزاوية محوريا في حفظ اللغة العربية رغم المناوئين إذ يتضح هذا الفضل بامتياز في فترة الاستعمار الحالكة التي أتت على هوية المجتمع ، فلم يزل دورها في الحفاظ على هوية المجتمع وتماسك أفراده وتشبثهم بتقاليدهم سوى آداب مستقاة من تعاليم دينهم الحنيف، فكل من زار زاوية من زوايا العلم يلاحظ جذابة وأناقة اللباس العربي التقليدي من عمامة و قندورة يرتديها الطلبة مما يضفي على وجوههم النور والوقار من جهة والأناقة والجمال من جهة أخرى متفادين بذلك ما دخل على المجتمع لاسيما الشباب من أنواع الألبسة التي وإن كان مرتدوها يقرون أنها إسلامية إلا أنها دخيلة بل غير عربية .

دور الزوايا العلمية في تحقيق الأمن الفكري لطلبتها :

تبعا لرسالتها التاريخية السامية والنبيلة المرتكزة بالأساس على تزكية النفس وتهذيبها كما سبقت الاشارة إليه وإصلاح المجتمع المسلم مما لحقه من انحلال وتشرذم وفوضى في الفكر و الفتوى فقد لعبت الزوايا دورها على أكمل وجه، وسعت الى محاربة خطر الانقسام و التشرذم المذهبي وتعدد المشارب الفكرية التي تنتهي في كل مرة بحرب طائفية في المجتمع تأتي على قيمه ووحدته ومن ثم مروق أفراده عن دينهم الإسلام الذي أمرهم أول ما أمرهم به بالوحدة وعدم الخروج عن الحاكم ولو كان فاسقا . (بنخيرة، 2001)

قال تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾. (سورة آل عمران، آ: 103) و كل ذلك درءا للمفسدة وحفاظا على وحدة الأمة كما أن الملاحظ لطلبة الزوايا قد أشربوا بفكر الوحدة الاجتماعية والانقياد للمذهب بشكل لافت والاتزام التام بالخط الذي رسمه شيوخ التربية لهم ، ذلك أن هذه المؤسسات التعليمية ذات الصبغة الدينية قد لعبت دورها بشكل مثالي وكان سعي شيوخها المتفاني في تأدية رسالتها الضامن لعدم انسياق أتباعها ومريديها من الأخوان وراء جميع الحركات المتطرفة التي نهلت من الفتاوى غير المؤسسة أو الارتجالية ، ومنعت مؤيديها من الانسياق وراء كل ما من شأنه أن يهدد أمن الأمة ووحدة أفرادها .

ولتأكيد نجاح الزوايا في تحقيق الأمن الفكري يكفي الوقوف على محيطها حيث لا يوجد من أتباعها أي مريد التحق بركب هذه الأفكار أو جره سيلها العرم في فترة التسعينات والذي امتطى ركبه جمع من الأحزاب والجمعيات و حتى جمهرة من العلماء والمفكرين ناهيك عن الشباب الذي لا ينكر أحد أنه كان ضحية فتاوى التقطها من هنا وهناك ولا زال بعض أدعياء العلم لا يتوانون في الافتخار بنهل الفتاوى من خارج الديار فتخطفته الموجة فكان لكل مصيره ، مشهود في استقرار محيطها على الأقل أمنيا واجتماعيا ، فكان من نتيجة ذلك أنك لا تجد من بين أتباعها كما تقدم منحرفا ولا

متبوعا قضائيا ولا حتى من يهم بالهجرة غير الشرعية - الحرقة – كما لا تجد من أتباع الزوايا من تسبب في انقسام المجتمع أو من يحمل أفكارا دخيلة أو من يتبنى إيديولوجيات متطرفة بل أتباعها هم أناس مسالمون غذاؤهم ذكر الله تعالى وهدفهم رضاه و غايتهم العيش في أمن وطمأنينة بين إخوانهم و سمتهم سمت العلماء الربانيين ، تعج ألسنتهم بطلب العافية والأمن مطلب ذيلوا به كل صلاة لدى ذكرهم المعقبات في الورد الراتب من الأذكار.

و يعتبر محقا من قال إن الزوايا هي الضامن للحفاظ على هوية الشعب وتماسكه ومن ثم أمنه و وحدته ، ولهذا يجب الإقرار بدورها في استتباب الأمن بشكل إيجابي و رسالي الغاية من ورائه عيش أفراد الأمة الواحدة في كنف الوطن الواحد متبعين مذهبا واحدا هو المذهب المالكي مذهب دار الهجرة وعقيدة واحدة هي العقيدة الأشعرية كما قال العلامة السبكي على أنها مذهب أهل السنة. (السبكي، 2003)

إلى جانب اعتماد طريقة موحدة عبر كافة زوايا الوطن الواحد بل تستنسخ حتى عبر كافة زوايا العالم الاسلامي تسمى الطريقة التعليمية طريقة اللوحة والقلم والدواة والتعليم بالمنظومات وحفظ المتون تقييدا لما يتلقونه من علوم وفنون ، وقد قال الحكيم :

العلم صيد والكتابة قيده ... قيد علومك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصطاد غزالة ... وتطلقها بين الخلائق طالقة

ولم تزل طريقة التعليم بالمنظومات تعبرعن وعي عميق لدى العلماء المسلمين ، لإدراكهم أن طاقة العقل لدى الإنسان تتوزع بين الحفظ و الفهم ، و أن إطار الحفظ يبدأ كبيرا مع سن الطفولة و فيها يكون إطار الفهم و الاستيعاب أقل و أضعف ، ثم يبدأ إطار الحفظ بالتناقص لصالح الفهم حتى يتساويا ثم تصبح القدرة على الاستيعاب أكبر من التخزين في الذاكرة .

و بلا شك ، فإن الفترة الذهبية للحفظ هي بلا ريب فترة الطفولة ففيها يتعلم المرء على ذاكرة بيضاء ،وتكون المعلومات أرسخ و أبقى، حتى إذا كثرت المعارف و المشاغل ضاقت ساحة الذاكرة عن استيعاب الجديد ، فتزاحمت المعارف،و من هنا شاع بين أهل المعرفة : الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر ، و الحفظ في الكبر كالنقش في الكدر .

و على إدراك لذلك كله نهج العلماء المسلمون في التعليم ، فقدموا للصغير أصول المعارف على هيئة منظومات و متون طلبوا من الفتى حفظها و استظهارها ، و لم يرغموه على فهم مقاصدها و احتمالاتها ، فشغلوه بما هو به جدير ، و صرفوه عما ليس هو له بأهل ، إذ لن يبلغ فهم هذه المنظومات إلا بتكليف و تعسف ، بينما يمكنه حفظها بمتعة و يسر ، و يتخذها له نغما و لحنا .

الزوايا العلمية والمدارس القرآنية عضد لكل سياسة تربوية رسمية:

لم تزل مؤسسة الزاوية في رسالتها التربوية عضدا للسياسات التعليمية بالدولة الحديثة باعتبارها نظاما تعليميا خاصا مع ما يتسم به من أصالة و تجذر عميق عمق التاريخ الاسلامي ما جعله بحق منهلا صاف ومضمون النتائج، ذلك أن ما يعرف بالمدارس التقليدية و المتمثلة في الزوايا و المدارس القرآنية كان لها دور حيوي في الحفاظ على اللغة العربية ، و نشر تعاليم الدين الإسلامي .

وقد أنشد أحد الشناقطة مرغبا في الدراسة على طريقة الزوايا التقليدية فقال :

يا بني لوحك أحسن بته .... اللوح لا الأصل والدينار والنعم

الأصل لابن الزوايا لوحه أبدا..... إن يخل منه فلا عز ولا كرم

خليلي افن عمرك غير الممدد..... على علم إن أنت أنفقت منه يزدد

ولا تفنين العمر في كسب ما إذا بخلت به تذمم وإن جدت ينفد

حيث اقتبس النظام التعليمي الحر بالزوايا المفتوحة للعامة من أبناء المجتمع المسلم في بلاد المغرب الاسلامي من الشناقطة. (خليل، 1987)

أما المدرسة الرسمية والتي تشرف عليها دائرة وزارية تسهر على تطوير مناهجها و برامجها و هذا قصد التنمية الشاملة و تحديث المجتمع، إلا أن استبعاد الشق الروحي من مقرراتها جعلها في حاجة ماسة الى تربية موازية تدعمها من خلال العلاقة بين التربية الدينية بزوايا العلم و ما تحتويه مناهجها و أهدافها المسطرة من جهة و المدرسة الرسمية من جهة أخرى عبر مقرراتها، حيث أقر أهل هذا الاختصاص من القائمين على شؤون التربية بأن كل سياسة تعليمية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تفتقر إلى قسط من التربية الروحية باعتبارها الغذاء الروحي للفئة المستهدفة بهذه السياسة من الطلبة، فمنهم من يأخذها مأخذ الموسيقى ومنهم من يعتمد الفن ومنهم من يعتبر الرسم بل ومنهم من يجنح للرقص على أنه متنفس ومنهم من يعتبر الرياضة أساس كل تربية وكل حزب بما لديهم فرحون، كما يقول محمد نسيب في هذا الشأن كل ما هو أجنبي وحافظت على العادا :" ، أن طالب الزاوية كان يتمسك بدينه ويتعلق بشخصيته ويعتز بثقافته العربية الإسلامية في الوقت الذي كان فيه الناس يتهافتون على اللغة الفرنسية لغة الخبز المغموس في دماء الضحايا المذبوحين فكانت الزوايا قد نمت روح الأمة بين أبناء المجتمع الواحد".

وتبقى التربية الروحية أساس من أسس سياسة التعليم التي آتت أكلها وظهرت ثمارها على وجوه أبناء الزوايا وطلبتها وتجسدت في أفعالهم وكانت السمة الأبرز في يومياتهم .

التعليم في الزوايا والمدارس القرآنية بين الأزمة والحل

لم يزل تراجع الزوايا العلمية وتركها مساحة النشاط والبروز للزوايا الخاملة مستغلة بهرجة الإعلام مشكلة في إبراز الرسالة التعليمية للزوايا وتحديد إيجابياته لالتباس الأمر لدى الباحثين في معرفة الغث من السمين في قطاع الزوايا ومحاولة ركوب الموجة من طرف المتسلقين ركب النجاح وهم في الحقيقة لا ينتجون طالبا واحدا عبر تاريخهم رغم الدعاية لنشاطهم المزعوم من طرف جهات عديدة ، و في هذا الاطار فقد

سعى المستعمر وأذنابه من بعده إلى يومنا هذا إلى تكريس سياسة تعليمية تهدف إلى طمس مقومات الأمة و اعتماد كل ما له صلة بمبادئها وأعرافها في بوتقة تعليمية واحدة اصطلح عليها بالسياسة التعليمية بريادة المدرسة النظامية ، بل وهناك حتى بعض الأصوات التي تعتبر الزوايا والكتاتيب سببا في التسرب المدرس في محاولة لخلق تنافسية وعدائية بين مدرستين هما في الحقيقة شقيقتان شكلتا عبر التاريخ الحديث جناحي التنمية الفكرية والسياسة التعليمية في المجتمع.

و الحقيقة أن هذه العوامل جعلت الناس يحجمون عن شد الرحال إلى الزوايا من أجل طلب العلم و يميلون إلى المدارس النظامية الرسمية لما فيها من امتيازات على رأسها تكليل مسارهم العلمي بشهادة تضمن ما قد يسد رمقهم لاحقا وإن كان المتخرجون يعودون لأهلهم شيوخا يفئ إليهم الطلبة والمريدون من كل حدب وصوب ، فلما فاءت شمس الزوايا للغروب سدت فراغها المدرسة النظامية لا من حيث شمولية العطاء الفكري أو الصبغة الروحية فهي معتمدة في الغالب نموذجا سافرا وللغرب مائلا بل من جهة أعداد المنتسبين هنا وتراجعهم هناك ناهيك عن تزايد المناوئين عن جهالة ، ومن جهل شيئا عاداه .

فقد تزايد عدد المسجلين من التلاميذ بالمدارس النظامية في مرحلة الابتدائي وخصوصا بعد تقريب المدارس والفصول في كل قرية وبناء فصول في كل دشرة فامتلأ الريف بالمدارس الرسمية التي رأى فيها المجتمع البديل الأمثل للزاوية في حين كان يجب أن تتكاملا .

خاتمة :

لم تزل مؤسسة الزاوية ذات الصبغة التعليمية مصدر فخر الحضارة الاسلامية في شقها العلمي لكونها اضطلعت بكنه جوهر الرسالة – إقرأ – وأدركت حقيقتها مبكرا فزاوجتها بتربية لم تقتصر على ظاهر العلوم بل بواطن النفوس و علاج أمراضها باعتماد مبدإ التخلية والتحلية المعروف لدى السادة الصوفية.

ومن هذا المنظور ، فقد وقفنا على أدوار عديدة للزوايا العلمية تعددت بين دور اجتماعي وروحي و علمي خاصة وهو موضوع مقالنا .

وقد كان للزوايا بالغ الأثر في تأدية رسالتها عبر التاريخ الاسلامي على المجتمع المسلم وعلى الفرد فيه، كما كانت منهلا للسياسات العامة في دعمها بالطاقات البشرية بل كل قطاعات الدولة حيث كانت الزوايا ولا تزال تمدها بالكفاءة الحقة والنزيهة والتي لا يختلف اثنان على أن منتوجها أقل ما يقال عنه أنه مضمون بالكلية كفاءة وأخلاقا ووفاء للدين والوطن.

إلا أنه و بالمقابل نأسى على الزوايا ومع كونها صرح حضاري وحركة تاريخية يكتنفها الإبداع و الأصالة وشرف الانتماء وشموخ البناء ونقاء الروح إلا أنها لازالت بعيدة عن العناية الواجبة سواء من محيطها أو من القائمين عليها.

وعليه، يجب الالتفات إليها بما يعيدها إلى سابق عهدها حتى تسهم في المشروع الحضاري الشامل وانقطاعها الحصري إلى الغاية من نشأتها، ذلك أنه لم يزل تمثيل الزوايا وبالخصوص العلمية منها للحياة التربوية والثقافية بامتياز في فترة معينة من تاريخ الجزائر الثقافي والديني يجعل منها محل انشغال كل باحث ومفكر لاسيما علماء الاجتماع، فماضي مؤسسة الزوايا المشرق والحافل بالانجازات يستحق التمجيد و يبعث على الافتخار من طرف المنصفين.

المراجع:

السبكي تاج الدين، طبقات الشافعية (المجلد 2)، دار هجر للطباعة والنشر.

النحوي خليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط. تونس: المطبعة العربية للنهضة،1987.

جليند محمد سعيد، من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة. القاهرة: دار قباء، 1987.

حسين رمعون، مقال الممارسة الهوياتية، مجلة إنسانيات، العدد03 سنة 1998 .

صلاح الدين التجاني، الكنز في العلوم الصوفية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

عبد الحق ميجي، ملتقى الاخوان التجانيين،عين ماضي،ملتقى الشروق،08فيفري2009.

عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. مؤسسة الرسالة.

عبد الله ابن عبد العزيز التميمي، ملتقى الخطباء. الرياض، 29 سبتمبر 2015.

عبد الله المسافر، أقوال العلماء والأئمة في التصوف والصوفية، تم الاسترداد من *https/alshrefalm7sy.ahlamontada.com* 27 أكتوبر 2007.

محمد نسيب ،زوايا العلم والقرآن في الجزائر ، دار الفكر، الجزائر، 2004.

مصطفى باشتارزي، المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية (المجلد 01)عبد المنعم القاسمي، المترجمون) الجزائر: دار الخليل القاسمي.

نجيب بن خيرة. (2001). الزوايا في الجزائر وفريضة التعليم الغائبة. مجلة الأمير عبد القادر (08).

النحوي خليل. (1987). *بلاد شنقيط المنارة والرباط*.

تاج الدين السبكي. (2003). *طبقات الشافعية*. دار هجر للطباعة والنشر.

حسين رمعون. (1998). الممارسة الهوياتية. *إنسانيات*.

عبد الحق ميجي. (2009). ملتقى الاخوان التجانيين. (صفحة 162). عين ماضي: ملتقى الشروق. تاريخ الاسترداد 08 02، 2009

عبد الرحمان باشتارزي. (2016). *المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية*. الجزائر: دار الخليل القاسمي.

عبد الله التميمي. (29 سبتمبر، 2015). *ملتقى الخطباء،الرياض*.

عبد الله المسافر. (27 أكتوبر، 2007). *أقوال العلماء والأئمة في التصوف والصوفية*. تم الاسترداد من ahlamountada: http.alshrefalm.ahlamountada.com

نجيب بنخيرة. (2001). الزوايا وفريضة التعليم الغائبة. *مجلة الأمير عبد القادر*، صفحة 157.

النحوي خليل. (1987). *بلاد شنقيط المنارة والرباط*.

تاج الدين السبكي. (2003). *طبقات الشافعية*. دار هجر للطباعة والنشر.

حسين رمعون. (1998). الممارسة الهوياتية. *إنسانيات*.

عبد الحق ميجي. (2009). ملتقى الاخوان التجانيين. (صفحة 162). عين ماضي: ملتقى الشروق. تاريخ الاسترداد 08 02، 2009

عبد الرحمان باشتارزي. (2016). *المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية*. الجزائر: دار الخليل القاسمي.

عبد الله التميمي. (29 سبتمبر، 2015). *ملتقى الخطباء،الرياض*.

عبد الله المسافر. (27 أكتوبر، 2007). *أقوال العلماء والأئمة في التصوف والصوفية*. تم الاسترداد من ahlamountada: http.alshrefalm.ahlamountada.com

نجيب بنخيرة. (2001). الزوايا وفريضة التعليم الغائبة. *مجلة الأمير عبد القادر*، صفحة 157.